

العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى عند عبد الملك مرتاض

The colloquial Algerian and its connection to classical at Abdel Malik Murtada

الدكتورة: حورية بن يطو

benyettouhouria3@gmail.com

المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان - الجزائر

ملخص :

صرف الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض جهده العلمي والعملية بأعلى درجات الكفاءة نحو التعامل مع التراث الحضاري الجزائري من آدابه وقيمه وعاداته وتقاليدته وثقافته الشعبية، ولعل أكثر ما شد انتباهي في أعماله النقدية، كتابه حول : "العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى"، ولا شك أن العنوان كان صريح الدلالة على مدارس تأصيل العامية الجزائرية وتثبيت أصالتها العربية بالشواهد والنماذج، وللوصول إلى الهدف اشتغل ناقدنا في الفصل الرابع من الكتاب على دراسة طائفة من الأمثال الشعبية للدلالة على نقاوة عاميتنا الجزائرية، من خلال معالجة بعض المواضيع المتعلقة بالحياة والخاصة بمجتمعنا الجزائري كالأخلاق والحكمة، والتربية والتوجيه، والسخرية والتهكم والنكتة الفكاهة، والعظة والعبرة، والحب والكره والاضطراب والطمأنينة، والخوف والأمن، والسعادة والشقاء.

الكلمات المفتاحية: العامية، الفصحى، التحريفات، الإرث الاستعماري، العوامل.

Abstract

Algerian critic Abdel Malek Murtada spent his scientific and practical effort in the highest degree of efficiency towards dealing with the Algerian cultural heritage from his manners, values, customs, traditions and popular culture, and perhaps what caught my attention most in his critical works, his book on: "Algerian colloquialism and its relationship to classical", there is no doubt that the title was Candid indication of the study of establishing the Algerian vernacular and establishing its Arabic originality by evidence and models, and in order to reach the goal, our critic has worked in the fourth chapter of the book to study a range of popular proverbs to denote the purity of our Algerian vernacular, by addressing some issues related to the neighborhood It belongs to our Algerian society, such as ethics and wisdom, education and guidance, irony, cynicism, humor, humor, sermon and lesson, love, hate, turmoil, contentment, fear and security, happiness and misery.

Key words: colloquial, classical, distortions, colonial legacy, factors

إن الأمر الذي حتم اختيار هذا الموضوع دون بقية المواضيع النقدية الأخرى، إحساسي الشديد بمسألة الانتماء والوجود لهذا الوطن المفدى الذي تختزن فيه مقومات الهوية الوطنية من جهة، وما أغرى الناقد من فراغ في السوق الجزائري من أي دراسة مماثلة ومستقلة في هذا الموضوع من جهة أخرى .

ولهذا اهتم عبد الملك مرتاض بموضوع اللغة التي هي نواة المجتمع ، فكان له الاسهام الأعلى والقدر المعلن بنقده وتنقيبه في اثناء المدونة الأدبية الجزائرية، والوصول إلى منهجية راشدة على النحو الذي يولد قيمة مضافة تتحقق بها العملية الإبداعية وتقويمها بموضوعية وحياد، ولعلّ الباحث في موضوع تأصيل العامية الجزائرية عند عبد الملك مرتاض لا تكاد تخفى عليه ملامح الشخصية الوطنية الثابتة، وإن كانت عتية، ولا يمكن بشكل أو بآخر اخفاء الحقيقة المؤلمة التي فاه بها لسانه علنا في مقدمة الكتاب ذاته، عن قلة الباحثين العرب في تناولهم لمثل هذه الدراسات اللغوية قائلا: "ويعز علينا أن يبحث الأجانب في تراثنا الحضاري الذي

اللغة جزء منه، ونجتزئ نحن بقراءة ما يكتبون دون أن نصنع كبير شيء، أولسنا أولى بكتابة ذلك والبحث فيه، والحووم حوله ثم الغوص عليه ؟ فنحن أدرى باشتقاق كلامنا، وأعرف بمنابت أصوله وأعلم بخفايا جذوره"¹.

من هنا، اتضح جلياً لنا أن قيمة هذه الدراسة النقدية في المجتمع الجزائري، لا يمكن أن تكون من ترف القول أو البحث، ولا من عقيم النتائج، وانما هي ضرورية لطلاب فقه اللغة، لكي يعرفوا كافة أصول لغتهم بما فيها اللهجات الإقليمية الشائعة على ألسنة العوام في الشوارع والأسواق والمعامل والحقول² والتي تختلف باختلاف الجهات والبيئات الجغرافية وما يكتنفها من ظروف اجتماعية وطبيعية فيزيولوجية.

ظل ناقدنا وفيما لقناعاته، فكان شديد الحرص على الأسلوب الذي يؤدي به كلامه والمنهج الأمثل الذي يطرح به أفكاره، فنجده في الغالب كثيراً ما يوجه للدارسين من طلاب فقه اللغة أسئلة في جانبها الحسي، وقدرته على مصادرة صوراً بصرية على المستوى الذهني، تجعل هؤلاء الدارسين يستطيعون أن يستخلصوا نتيجة واحدة على الأقل، من خلال الإجابة عن هذه الأسئلة الآتية³:

- ما مدى علاقة عاميتنا بالفصحى؟.

وما هي أصول لهجاتنا المحلية المختلفة في الجزائر؟.

وطبيعي أن يفضي هذا الطرح النقدي لعبد الملك مرتاض في مقامه الأول، إلى دعوة الكتاب لإزالة النظر والتمعن في عراقية العامية الجزائرية وتثبيت أصلها العربية، حجتة في ذلك أن معظم الألفاظ العامية الجزائرية فصيحة لكن أفسدتها العامة من الناس بألسنتها، فأخذت تبتعد عن الفصحى شيئاً فشيئاً³، فهو إلى جانب استدعائه الصريح الذي ينم عن وعيه على التطلع إلى أهمية المعرفة الهادفة في هذه الدراسة اللغوية الخاصة بعاميتنا الجزائرية، فقد استطاع ناقدنا أن يفرغ قدرته أيضاً على دراسة واستحضار منجزات نقدية أخرى لها علاقة شديدة بالعامية التي هي رافد لها والأصل في وجودها وقيامها، وتتمثل في معالجة مجموعة من الألفاظ الشعبية جمعها عبد الملك مرتاض في كتاب تحت عنوان: (الألفاظ الشعبية الجزائرية)، مشيراً إلى أن المضمون العام للأحاجي والألفاظ الجزائرية عميقة وهادفة تدل على ذكاء العقلية الشعبية، وقدرتها على ربط الصلة بين اللفظ الظاهر المنطوق والمعنى الباطن المقصود⁴.

ولا شك أن مثل هذه الدراسات الشعبية، قد تدل على مرام الناقد الذاتية في إبراز القيمة الحضارية للألفاظ والأمثال الشعبية التي كان لها دلالات تاريخية وحضارية ذات شأن، تمثل في مجموعها مرحلة معينة من المراحل التاريخية التي مرّ بها المجتمع الجزائري، ولهذا نظر عبد الملك مرتاض إلى مواضعها وأطال النظر، وقد أسعفته وظيفته التدريسية لمقياس الأدب الشعبي بجامعة وهران منذ يضع سنين، وغدت اهتمامه بهذا الجنس الأدبي المنتهي إلى الشعبيات، فأخرج لنا مبحثاً تفصيلياً في هذا النوع من الأدب الشعبي بالمفهوم الجزائري، هو غاية في الدقة والاحاطة ولهذا لا ينبغي أن نعتبر فن الألفاظ "ترفاً ثقافياً لا يعني إلا خيالاً جامحاً، وتسلية عابرة، بل اننا نجد للغز دلالات عميقة: تعني الحضارة، والتاريخ، وتعني التربية والتعليم، وقبلما تكون غايته سطحية عابرة فحتما يفترض لكل لغز هدف، أي أن للغز الشعبي أهميته

والمتمثلة في ربط الصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات بتجمعهم في مكان معين وزمان معين وتطرح هذه الألفاظ الشعبية حول موضوعات مختلفة تتصل بالطبيعة والانسان والحيوان بوجه عام⁵.

إشكالية العلاقة بين العامية والفصحى في الجزائر:

لقد عُدَّ موضوع الفصحى والعامية في تراثنا الحضاري أمرا شائكا وطريقا معتسفا احتدم حوله الصراع قديما وحديثا في ظل التغيرات التي لا تتوقف والتحولات الإنسانية والاجتماعية المستمرة، وهي بذلك تمتد بجذورها إلى العصر الجاهلي، حيث كانت العرب تستخدم في لقاءاتها الأدبية التي تتواصل بها في مواسم خاصة كمواسم الحج والتجارة وأسواق عكاظ، لغة راقية يقولون بها الشعر ويتحاكمون بها بينهم، ويستعملونها حتى في أحاديثهم العادية في تلك اللقاءات، أما إذا رجعوا إلى قبائلهم استعملوا لغة أقل منها مستوى وأدنى درجة، وقد شكلت هذه الظاهرة منذ بدايات اللغة صراعا لغويا داخليا عرف باسم 'الازدواجية اللغوية' بين الفصحى والعامية، تمثل الفصحى لغة الاعراب والكتابة، فيما تمثل العامية لغة اسقاط الاعراب لا يشترط فيها مستوى تعليمي، أي أنها: لغة الأمي والمتعلم، الفقير والغني، ولا تخضع لقوانين نحوية وصرفية تضبطها وتحكم عباراتها، فهي لغة تمتاز بالمرونة والسهولة في النطق، نتجت عن طريق تفاعل لغوي حدث للفصحى عبر تطور الأزمان⁶، وهذا ما استلزم وصف العامية بكونها تفرعا لهجيا للفصحى.

إلا أن اللغة العامية بلهجاتها المتباينة امتدت من عالم الحياة اليومية والثقافة الشعبية إلى عالم الثقافة الحضارية المنفتحة من خلال محاولة الناقد عبد الملك مرتاض في وضع تعديل أو اصلاح لغوي لترويج الفصحى واشاعتها بين المجتمع الجزائري أو تقريب العامية من الفصحى، دون أن تفقد الاولى درجتها ومنزلتها، وقد عقد ناقدنا فصلا كاملا فيه من الأمثلة والشواهد ما يدل على رقي وأصالة عاميتنا، بحيث يستطيع الباحث المحايد النزيه أن يضعها في صدر العاميات العربية الراقية، رغم توالي الغزوات وتعاقب الاحتلالات على أرضنا⁷.

ومما هو قمين بالذكر - منهجيا - أن ناقدنا في حديثه عن اللهجة المتصلة بإشكالية البحث أصلا، تجاوز التحديد اللغوي والاصطلاحي للفظة، واكتفى بذكر أمثلة مختلفة للتمييز بين اللهجة واللغة، فعَدَّ ذكر القاف همزا لدى أهل تلمسان مثلا لهجة لا لغة، واستعمال 'القمح' بدل 'البر' أو 'البر' بدل 'القمح' عدّه لغة لا لهجة، أما نطق الراء غينا أو السين ثاء عند بعض الصبيان عدّه عيبا منطقيا يدعى 'لثغة' وصاحبه 'ألثغ'⁸.

انطلاقا من هذا التمايز اللغوي الذي قدمه ناقدنا، نستخلص أن اللهجة تنوع لتلك البيئة الواسعة التي اصطلح على تسميتها القدماء من علماء العربية بـ 'اللغة' حينما وبـ 'الحن' حينما آخر، لذا نسمي التنوعات المختلفة للعامية لهجة، فنقول العامية الجزائرية واللهجة الغليزية أو التلمسانية مثلا، ذلك أن العلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، فاللغة تشتمل عادة على عدّة لهجات لكل منها ما يميّزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الخصائص اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات⁹.

تتمثل العامية عند عبد الملك مرتاض في هيكلها اللغوي العام، في اللهجات الإقليمية التي تختلف من منطقة إلى منطقة ومن جهة إلى جهة أخرى، وهذه اللهجات تخضع لعوامل لغوية كثيرة كما ثبت في العلوم

الاجتماعية نفسها¹⁰، وأجمع عليه المؤرخون كذلك، وهو أمر حتمي وطبيعي في أي مجتمع كان، ويظهر أن أهمها يرجع إلى عوامل جغرافية وجسمية فيزيولوجية من حيث مناخها وتضاريسها التي ساهمت بشكل فعال في نشأة اللهجات، فالطبيعة الصحراوية مثلا: بحرارتها وجفافها تمتاز لهجاتها بخشونة أصواتها وغرابة ألفاظها وطبيعة الشمال المعتدلة أدت إلى نشأة لهجة رقيقة ولينة " فمتى اختلفت العوامل الجغرافية اختلفت اللغة، باعتبار أن اللغة كائن حي ينمو ويتغذى من مختلف العوامل المحيطة به"¹¹.

أضف إلى ذلك العوامل الاجتماعية والسياسية المتمثلة في انقسام المجتمع إلى طبقات مختلفة سواء على المستوى التعليمي الذي يحدّد طبقته كلا من المتعلم والأُمّي أو على المستوى الاقتصادي الذي يمكننا أن نقسمه إلى ثلاث طبقات: طبقة غنيّة ومتوسطة وفقيرة، فالطبقة الغنية أو البرجوازية تنمق في كلامها وتنثني ألفاظها، لأنها تحاول أن تبدو في أحسن الصور على جميع المستويات¹²، وفوق هذا وذاك فقد ترجع الأسباب أيضا إلى احتكاك اللغات الأصلية واختلاطها نتيجة غزو أو هجر، فاللغات تتأثر ببعضها البعض نتيجة احتكاكها واختلاطها إما لغرض تجاري وإما لغرض غزو أو سطو، ولنبرز مثال على ذلك مغربنا العربي الذي نشأت عاميته نتيجة الفتوحات الإسلامية، إذ كانت اللهجة الأمازيغية اللغة الوحيدة ومع دخول اللغة العربية أثناء الفتح الإسلامي نشأت العامية المغربية كنتيجة لتفاعل الفصحى بالأمازيغية، وقد وصف ابن خلدون هذا الامتزاج اللغوي بقوله: "وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب، ومن الملكة الثانية للعجم، فعلى مقدار ما يسمعون من العجمة ويربّون عليه يبتعدون عن الملكة الأولى"¹³.

وهو الأمر الذي أقره المستشرق الألماني 'فون' في جريدة المجاهد الثقافي¹⁴ واتفق عليه عبد الملك مرتاض واعتبره محق فيم ذهب اليه، في كون اللهجات الجزائرية نفسها تختلف من إقليم إلى إقليم، حيث نجد فيها ما هو عال فصيح أو قريب من الفصح، وفيها ما هو ركيك ضعيف، أو منبوذ سخي، فنطق القاف على أصله في الغرب الجزائري أفضل بكثير وبالضرورة من نطقه ألفا في لهجة التلمسانيين والفاسين والقهريين، كما أن بعض اللهجات العربية أفضل بالضرورة من بعض، بحيث نجد مثلا لفظ 'كيف' في لهجتنا الجزائرية أفضل من لفظ 'الزاي' في اللهجة المصرية، كما كانت بعض اللهجات العربية قديما في شبه الجزيرة العربية أفضل من بعض ومن أجل ذلك كان المرفوض والحوشي والغريب والفصح من الكلام¹⁵.

وعلى هذا الأساس، ناصرنا قدنا رأي المستشرق الذي حاول أن يفهم حقيقة من الحقائق العلمية ولم يرم إلى ما زعم اليه الناقد سالم علوي في جريدة الشعب الجزائرية من أن 'فون' قصد إلى البرهنة على وجود فروق فردية عظيمة بين اللهجات العربية؟¹⁶.

وكما هو معلوم في الآثار الأدبية القديمة شعرها ونثرها، فإن اللغة العربية قديما شهدت تمايزا شديدا بين لغة العرب في الشمال ولغة العرب في الجنوب من شبه الجزيرة العربية (القحطانيين والعنانيين) حتى قال عنها أبو عمرو ابن العلاء: إنهما لغتان متميزتان شديدا التباعد¹⁷، كما تختلف كل قبيلة منها عما عداها في بيئتها الجغرافية وما يكتنفها من ظروف طبيعية واجتماعية، وما تميزت به من نواحي التفكير والتعبير عن وجدانها وحاجاتها وما أتيح لها من وسائل المحادثة، ولقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى هذا الموضوع

بقوله: "نحن إذن أمام لهجات مستقلة ذات صفات خاصة تميزت بها القبائل العربية قبل الإسلام"¹⁸، وبمرور الزمن قد تكاثرت هذين القسمين وتعددت قبائله وتبعاً لذلك صار لكل قبيلة لهجة محلية خاصة¹⁹.

وقد تولّد عن هذا الاختلاف اشتباك اللهجات العربية بعضها ببعض في صراع لغوي كان له الأثر البين في اللغة، وفي توحيدها واتفاق قبائلها المتنافرة عليها، ولعلّ السرّ في ذلك - على حد قول الدكتور إبراهيم أنيس - أنه "لما دعت الحاجة إلى اتصال تلك القبائل في مواسم الحج قبل الإسلام، وإلى عقد المؤتمرات الثقافية التي سميت بالأسواق بدأت الحاجة إلى وسيلة للتفاهم تجمع بين تلك القبائل"²⁰، فتواضعوا على جعل لهجة قريش لغة قومهم يتخاطبون بها في مؤتمراتهم الرسمية وتجمعاتهم الكبيرة، لأنها لغة خالية من الغنّة والعجّة الكشكشة والطُمُمانية²¹ فكتب لها النصر والبقاء، وهذا لا يعني أن لغة قريش لم تكن خليطاً من اللهجات العربية المختلفة. التي كانت تحضر موسم الحج في كل عام. غير أن لغة قريش كانت هي الغالبة على اللهجات الأخرى بحيث كانت تسمع لغات العرب الوافدة إليها فما استحسنته من لغاتهم تكلمت به فصارت أفصح العرب.

يرى عبد الملك مرتاض أن اللغة ابنة المجتمع تتطور معه إذا تطور، وتتأخر إذا تأخر وتجمد إذا جمد، فهي ظاهرة اجتماعية شأنها شأن سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى تخضع إلى تغيرات خلال الزمان والمكان، وهذا التغيير يشمل جميع مستويات اللغة المنطوقة سواء: المنطوق العامي الدارج الخاص بكل فرد جزائري مهما كان انتماءه أو المنطوق العامي المتفصح القريب من الفصحى، وهي لغة تقبل ببعض التراكيب السهلة الخاصة بالعامية نجدها عند الطبقة المتعلمة في مناقشتها وأحاديثها كالإعلام والحكومة والقضاء، أو المنطوق الفصيح الذي يعمره المتخصصون في اللغة العربية كالأدباء والدكاترة في المقامات العلمية كمناقشة الأطروحات وإلقاء المحاضرات²²، وهذا لا يعني أن المتخصص في اللغة العربية المحيط بقواعدها قد يلتزم التزاماً مطلقاً بهذا المستوى، بحيث يمكن أن ينتقل بصورة لا إرادية إلى مستوى المنطوق العامي المتفصح حتى وإن كان في مقام علمي، وقد يلجأ إلى المستوى الأول عند اقتضاء الحال، كأن يستحضر المتكلم مثلاً شعبياً بالعامية من باب الترفيه وتقريب الروابط بينه وبين مخاطبيه، ذلك أن المنطوق يختلف بعفويته عن المكتوب الذي يقتضي نوعاً من التكلف والتصنع في التعبير.

فهو يعضد رأي السلف من أئمة اللغة والنحو قبله، تأكيداً على الوظيفة الاجتماعية والمعرفية والتواصلية للغة، التي تواضع الناس وتعارفوا عليها تدريجياً شيئاً فشيئاً، حتى صارت نظاماً متكاملًا في التواصل بين الأفراد.

وبما أن اللغة تخضع لجهاز عصرها المعرفي، ولنمط البنية الفكرية والاجتماعية السائدة، فقد اعتبرها ناقدنا قضية زمنية لا غير، أي أن تطور الأفراد والمجتمعات من زمن إلى زمن أدى إلى تطور الثقافات والرؤى والتصورات، ومن ثمة تطور العناصر الإبداعية والمعرفية الإنتاجية تحصيلًا وتوظيفًا وتداولًا، وهذا معلوم "في قوانين اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدها الأولى أمداً طويلاً، فلا تلبث أن تنشعب إلى عدة لهجات"²³، وعليه فلا يعقل أن تبقى لغة على حالة من الثبات والجمود عبر العصور والأزمان.

ولهذا، فإن أهم ميزة تنماز بها اللغة أنها ظاهرة اجتماعية تفاعلية تتغير وتتطور كغيرها من الكائنات بحكم متطلبات الحياة وظروفها، وطبيعي أن تنعكس مظاهر التطور على اللغة استجابة لحركية الحياة واستيعاب مختلف جوانبها، لأنها تعد: "ظاهرة بسلوكية اجتماعية ثقافية مكتسبة لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررّة في الذهن، وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل وباللغة فقط صار الإنسان إنسانا، وباللغة فقط تطورت الحضارة وتقدم العمران وبلغ العقل الإنساني ذروته"²⁴.

ولا شك أن هذا التوجه العام الذي يتطابق مع منطلقاته الفكرية الكبرى يسعى إلى إيراد الافهام قبل إيراد الدقة العلمية التي لا تغادر ولا تنسى، وهذا أمر ليس بغريب، حين يصبح الناقد مثقفا ومبدعا ومصلحا سياسيا واجتماعيا، فقد انطلق عبد الملك مرتاض من أسس متينة ومعايير دقيقة في البحث عن مسألة العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، بحيث جنح إلى مفهومة المفاهيم وتأصيل الألفاظ وتأويل مدلولاتها الحديثة التي أصبحت متداولة بين الشعب الجزائري بعد الاستقلال، على نحو منهجي سليم ورصين، واجتهد في تقديم أصول طائفة من التعابير الدائرة والمتداولة في اللهجات الجزائرية، موضحا أن الذي يبحث في الحصيلة اللغوية لشعب معين في فترة من التاريخ يقتنع بسداد هذا المذهب، لذا نجده قد تمثل هذه الحقيقة السوسيوثقافية، وعبر عنها في قوله: "أن الحصيلة اللغوية التي يتكلم بها الشعب الجزائري تختلف من جيل إلى جيل، فحصيلته اللغوية أثناء القرن التاسع عشر ليست هي حصيلته أثناء النصف الأول من هذا القرن، ومثل ذلك يقال في المادة اللغوية التي يستمد منها الشعب التعبير عن أغراضه وعواطفه بعد الاستقلال فقد وجدنا كثيرا من الألفاظ والعبارات الفصيحة، جرت على ألسنة الجزائريين فأصبحوا ينطقونها كما تنطق في المدرسة والجامعة، وذلك ناشئ عن تأثير الصحافة المنطوقة والمكتوبة وعن تأثير المدرسة قبل ذلك، كما هو ناشئ عن استعداد هذا الشعب للتعلم بأي صورة من الصور"²⁵.

العامية الجزائرية وأشكالها الإثرائية والاستعماري:

عندما حمل الفتح الإسلامي معه اللغة العربية. التي نزل بها القرآن الكريم. إلى بلاد الأمازيغ والأندلس انتشرت بسرعة مذهشة، "ولا غرو في هذا الانتشار السريع، فله أسبابه فهي قبل كل شيء لغة راقية لغة دين وعلم وفن ثم أن شقيقتها الفينيقية التي سبقتها إلى هذه الديار مهدت لها السبيل لذلك"²⁶، وهذا ما يفسر تعريب الأمازيغ في الجزائر والمغرب عامة واندماجه بالعنصر العربي" وكيف يصعب ذلك وفي عروق البربري يجري من الدم العربي ما يثبت فيهم روح التآنس والتعايش مع العرب ويؤهلهم للتآخي والعمل المشترك لبناء الجزائر الجديدة العربية"²⁷، بينما عجز الرومان عن فرض لغتهم اللاتينية على الجزائريين رغم استعمارهم الطويل، وانطلاقا من هذا التمازج اختلط أهل المغرب عامة بالأمصار العربية الفاتحة، وكان طبيعي أن تختلط اللهجات فيما بينها، مما أدى ذلك إلى تحول ألسنة العرب أنفسهم، كما تحولت العربية على ألسنة الأمم التي دخلت الإسلام الأمر الذي خلق الشقة بين الفصحى والعامية، فازدواجية اللغة اذن هي انعكاس لازدواجية الظرف التاريخي والثقافي الذي شهده المغرب العربي عامة و الجزائر على وجه الخصوص.

ثم جاء بنو هلال إلى الجزائر في منتصف القرن الخامس الهجري، بعد أن حرصتهم الدولة الفاطمية . التي انتقلت إلى مصر وتركزت مكانها 'بلقين بن زيري بن مناد' الصنهاجي فتولى زمام أمرها . سنة 361هـ / 972م وأظهر ولاءه للعبيديين ومذهبهم الشيعي الاسماعيلي ولما توفي 'بلقين' خلفه ابنه المنصور سنة 372هـ / 984م وبعده بويج ابنه 'باديس' ومن أولى الأعمال الإدارية التي قام بها أن عقد لعمه 'حماد بن بلقين' على ولاية الجزائر بعد قمعه وردعه لقبيلة 'زناتة' المعادية له سنة 391هـ / 1000 م، فأصبح حينئذ صاحب النفوذ المطلق بالجزائر التي كانت تمتد غربا إلى ما تلمسان، وشرقا إلى تونس، وجنوبا إلى الزاب وورقلة، وكانت بذلك الدولة الحمادية أول دولة بربرية بالجزائر الإسلامية، وفي سنة 406هـ / 1015م جاء المعز بن باديس بعد وفاة أبيه باديس بن المنصور بن بلقين، وفي عهده حدث تحول في مسيرة هذه الدولة وعلاقتها بالعبيديين، حيث أعلن الخروج عن طاعة الفاطميين وتبرأ من عقائدهم الشيعية بعد أن اغترف من أستاذه 'علي بن أبي الرجال' المذهب المالكي ليكون له فيما بعد منطلقاً لنشر السنة ومحاربة البدعة ودولتها العبيدية، فصمم 'المعز لدين الله' الفاطمي على الانتقام من الصنهاجيين فأرسل إليهم قبائل 'بنو هلال' لتخريب البلاد وفسادها، وكان لحركة أولئك الأعراب الأثر السيئ على الثروة الاقتصادية، إلا أنه من حسن الحظ أن تأثر البربر " بلغتهم القريبة من الفصحى فزادت بذلك لغة الضاد انتشارا حتى زاحمت البربرية التي تقلص ظلها في الجبال " ²⁸، ومما يلاحظ . أيضا . اثر هذا التمازج الذي كان بين المجتمعين أن انتشرت لهجات يمنية، مثل نطق القاف كافا في جيجل، ونطق الغين قافا في الأغواط وغير ذلك من التمايز اللفظي الآتي من اللهجات المنحدرة عن القبائل العربية التي رافقت الفتح .

ثم جاء الاستعمار الفرنسي ، وسعى حينئذ إلى تهميش اللغة العربية وتجهيل الأمة الجزائرية بالتفكير والتجويع ومنع كل ما له دور في إيقاظ الحس الوطني، لفرض اللغة الفرنسية وتحقيق مشروع الجزائر قطعة من فرنسا ولغتها الفرنسية، وهنا لا بد من التذكير بنقطة أفادنا بها الشيخ البشير الابراهيمي وهي "أن مشكلة العروبة في الجزائر أساسها الاستعمار الفرنسي وهو عدو سافر للعرب وعروبتهم ولغتهم ودينهم الإسلام، وبيان ذلك مع الإيجاز أن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو منذ احتل الجزائر عمل على محو الإسلام وعلى محو اللغة العربية لأنها لغة الاسلام" ²⁹، وكان القصد من ذلك استئصال مجتمعنا من مقوماته الأساسية حتى يسهل ابتلاعهم وإدماجهم، وعلى الرغم من أن بعض القرائح الأدبية جمدت وتراجعت اللغة الفصحى إلى الورا، إلا أن عبد الملك مرتاض يؤكد لنا أن الذي يتأمل أمر الوجود الفرنسي وطوله وتكالب الغزو الأسباني للمناطق الشمالية والحاحه، ثم يبحث آثار ذلك كله في العامية الجزائرية، يصيبه شيء من الحيرة والاندھاش، إذ ظلت عاميتنا في البوادي بوجه خاص نقية صافية نطقا واستعمالا لوجود حفظة القرآن الكريم والطلاب في المساجد والزوايا بكثرة ³⁰ .

دلالة التعابير والألفاظ الجزائرية على نقاوة عاميتنا :

إن الملفت للانتباه أن جهود عبد الملك مرتاض اللغوية في كتابه الأول والثاني كانت محاولة منه لإبراز الخامة الشعبية الصادقة والأصيلة التي ترفض الابتذال، سواء في حديثه عن الألفاظ الحديثة التي أصبحت متداولة بين أفراد المجتمع الجزائري ولا يرحون يستعملونها في مرافق حياتهم المختلفة وهي سليمة

وفصيحة، أو في جمعه للألغاز والأمثال الشعبية الموروثة التي لا يمكن تغييرها بالاعتماد على ظروف المجتمع وأوضاعه، وانما لابد من الرجوع إلى الوراء لتحديد تلك الخلفية التاريخية والثقافية للمجتمع الجزائري التي كان لها انعكاساتها الإيجابية أو السلبية على المجتمع، وفي حضور مثل هذه القنوات تسمو بنا الذات الجزائرية إلى الآفاق لتثبت مصداقية دعوى التميز والاقرار لعاميتنا الجزائرية وصلتها بالفصحى، ولهذا لابد من القول " بأنّ العربيّة العاميّة الموجودة بشمال إفريقيا عموما، وخاصّة في الهضاب العليا والصّحراء الجزائريّة...، هي أفصح لغة عربيّة عاميّة موجود على وجه الأرض؛ لأنّ أغلب عباراتها (نحو 98 في المائة) هي عبارات فصيحة قرآنيّة...، بل إنّي أستطيع أن أوّكّد بأنّ العربيّة العاميّة في بلادنا هي أفصح كثيرا وأقرب إلى لغة القرآن من العاميّة التي يتكلّمونها في اليمن، وحتى في كثير من أنحاء الحجاز"³¹.

وعطفا على ما سبق، لا يمكننا الاشتغال بفك هذه الاشكالية اللغوية التي ظهرت حول العامية والفصحى بين متفق عليها كونها تجليا لدعوى الإرث الاستعماري ضد اللغة العربية، وبين مفترق لها كونها ظاهرة لغوية غير منكورة في تاريخ الأدب العربي، تعرضت للتشويه والتبديل الفوضوي وتجريدها من خصائصها الأساسية، ومن كل ما تشتمل عليه من بناء صوتي وصرفي ودلالي ومعجمي، ولا يمكننا أن نصنف بوجه أو آخر عبد الملك مرتاض ضمن الفريقين، فهو لم يقصد أبدا، أن ينطق المتعلمون في الإذاعة أو الشارع أو أي مكان آخر بالألفاظ العامية الساقطة، بحجة أن الشعب جاهل لا يفهم الفصحى، ولم يدعو أبدا إلى تكريسها، ولا هو من التيار الفرانكفوني الداعم للتنوع الثقافي اللغوي، وهو تيار ينعتة البعض بالتقاعس والقصور في أساليب تعليم وتطوير اللغة الأم، فهو نفسه يقر بأن مثل ذلك يعتبر خيانة ثقافية يحب التحذير منها والترغيب عنها، ولهذا يتساءل ناقدنا حول: هل صحيح أن الجزائري يستطيع أن يفهم كلمة التشين أو تشينة بدل البرتقال³²، وهل يستطيع أن يفهم كلمة لوطو، بدل سيارة بالعربية، رغم أنه يظهر في مادة الكلمة معنى السير والمشي كما يظهر في قالبها أو صيغتها معنى الآلة، وبذلك يصل إلى أن السيارة آلة تسير على حين لا يستطيع أن يرد كلمة لوطو أو فواتور إلى أصل غربي يهديه إلى معنى مادتها أو صيغتها؟ وشتان بين كلمة تحمل سمة أصالتها وهوية معناها في لفظها وكلمة مقطوعة النسب ضائعة الأصل والأمثال كثيرة.

ليس هدفنا - هنا - إحصاء أو حصر عدد من المصطلحات والمفردات الغربية التي تسربت بشكل كبير إلى لهجتنا وتركت آثارا بليغة لاسيما على المستوى الثقافي واللغوي، وإنما غايتنا إيراد بعض الأمثلة للاستدلال والتمثيل على أن تعدد لغات اللفظ تجعله من الدخيل و"كاشفا مهما له ودليلا قويا على عجمته، لأن الألفاظ العربية الأصيلة نادرا ما تحمل هذه السمات المتميزة بهذا الاضطراب كله، أما الألفاظ الدخيلة، فلم يقف العرب على أصولها واشتقاقها ولم يتفقوا على نطق موحد لها في اللفظة المتعددة اللغات"³³.

لقد كانت جهود عبد الملك مرتاض في فلك كتابه ' العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى ' قاصدة المفاهيم والتعابير الدالة على علاقة العامية الجزائرية بالفصحى، اللغة العامية المتداولة على لسان أفراد المجتمع الجزائري مقطوعة الأصل ليس لها النسب فكثير من الألفاظ العامية المنتشرة في رباع الجزائر موجودة كلها في اللهجات العربية القديمة وهذا يعني أن الصلة بين العربية الفصحى وعاميتها بالجزائر وطيدة، ولذا يمكن اعتبار اللهجة لغة فصيحة طرأت عليها بعض التحريفات البسيطة ليس إلا، على مستوى القواعد والحركات

و الحروف، مما جعلها تخرج عن فصاحتها إلى العامية، وقد كان لزاما علينا أن نقف - ولو بإيجاز - على طائفة من التعابير والألفاظ التي طرحها عبد الملك مرتاض لبناء تصوراتها الخاصة بالعامية الجزائرية وامتداداتها التاريخية، للوصول إلى أن هناك وشائج قريبي بين العامية والفصحى، فمثلا نذكر بعض التحريفات الموجودة على مستوى المبادئ والقواعد العامة³⁴:

الدراري: يقصد بها الدراري بالذال المعجمة، فالعوام يبدلون الذال المعجمة دالا، والثاء تاء، لتسهيل النطق بها، وهي عربية فصيحة لولا هذا التحريف البسيط .

الشكوة: وهي لفظة صحيحة فصيحة، ويقصد بها ذلك الوعاء المعروف الذي يتخذ من آدم للماء واللبن

الهدرة: يريدون بها معنى الكلام والتحدث، وهي لفظة صحيحة مأخوذة من لفظ 'الهدر'.

السفود: يقصد به عود من حديد بنظم فيه اللحم ليشوى، والعوام ينطقونه نطقا صحيحا، وهي لفظة عربية فصيحة قديمة جدا، وردت في بيت عبدة بن الطبيب :

والكوبُ ملآن طافٍ فوقه زَبْدٌ وطابقُ الكبشِ في السَّفودِ مَخْلُولٌ³⁵.

الكتان : يستعمل في عاميتنا استعمالا فصيحيا ليس فيه تحريف .

قنديل : ينطق في عاميتنا بفتح القاف، مع أن الوجه الصحيح هو الكسر .

المخدة : نقصد بها الوسادة التي يوضع عليها الخد والرأس عند النوم، ننطقها في عاميتنا بتسكين الحرف الأول، وكذلك الشأن في لفظة 'وسادة'، فإننا ننطقها بتسكين الواو.

مايدة : وأصلها مائدة، وهي عربية فصيحة، لولا التحريف الذي طرأ على الهمزة واستبدالها بالياء لتسهيل نطقها.

العفس : بمعنى الدوس والوطء، نقول عفس بمعنى داس والعوام عندنا لا يستعملون أبدا لفظ 'داس'، وإنما يستخدمون بدله 'عفس'، وهو استعمال صحيح وفصيح لا غميرة فيه.

الطاقة : النافذة، والطاقة لغة فصيحة وردت في بعض كتابات القرن الرابع الهجري، فقد استخدمها بديع الزمان الهمذاني في المقامة المضيرية، حيث قال: "هذه داري، كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة، أنفقت عليها فوق الطاقة"، للإشارة فقط أن لفظ 'الطاقة' التي ذكرها عبد الملك مرتاض تستعمل عند أهل البدو والأرياف الأقحاح نطقا واستعمالا، وتشيع هذه الظاهرة النطقية بين عوامنا من أهل الحضر في قلب الطاء تاء وفي كثير من مناطق المغرب الأقصى والمغرب الأدنى، فإنهم ينطقون الطاء تاء مسهلة فيقولون 'تاقة' بدل 'طاقة'.

المطرح : المفروش الذي يوضع على السرير، وهي فصيحة لأنهم أخذوها من طرحه إذا ألقاه، وكل مفروش صالح لأن يطرح عليه .

قصعة / القلب : تنطق قافا مفخمة 'G' في لهجات الغرب والجنوب الجزائري، فتفخيمهم لحرف القاف شبيهة تقريبا بقاف البدو أو جيم مصر، فالبدو هم الأكثر تقريبا من النطق العامي القديم يستعملون القاف بثلاثة نقاط³⁶، بينما نجد نطق القاف قافا في اللهجة العاصمية، ولاشك أن الظاهرة اللغوية تطرد عند أهل البدو في معظم البلدان العربية بما فيها مصر والمغرب الأقصى.

عَيْط عليه : بمعنى ناداه، ولا يستعمل العوام عندنا لفظة 'نادى'، ولفظة 'عيط' عربية صحيحة فصيحة، لأن معنى 'التعيط' هو الجلبة والصياح .

الجاي : بدل الجائي، نحتت هذه اللفظة من اسم الفاعل 'الجائي' لأن عوام الناس يمقتون نطق الهمز فحذفوه، كما أن هذا النطق المحرف شائع في أغلب العاميات العربية القديمة، مما يدل على ما تكتنز العامية الجزائرية من رصيد لساني أصيل، ذلك أن الإبدال الصوتي . المتمثل في تخفيف وتسهيل الهمزة . ظاهرة لغوية لجأ إليها العرب قديما في استعمالهم اللغوي التلقائي كقول حارثة بن بدر³⁷ :

وَمَا الْيَوْمَ إِلَّا مِثْلُ أُمْسِ الَّذِي مَضَى وَمِثْلُ غَدِ الْجَائِي، وَكُلُّ سَيَذْهَبُ

خاتمة :

ينبغي الاعتراف بأن جلّ هذه أن التراكيب اللهجية المروية، ما هي إلا صورة واقعية صادقة عن حياة المجتمع الجزائري الذي تغيرت طبيعة حياته، نتيجة تغير بعض القيم والمعتقدات والحضارة، وقد يستلزم ذلك طبعا أن تتغير وتتطور اللغة، لأجل أن تصبح الحياة اليومية التي يلتقي فيها أفراد المجتمع الجزائري كلّ، مسهلة تساعدهم على التواصل بسرعة وترفع عنهم كلفة التعامل مع الغير، ولهذا لا يمكن اعتبار تداول عاميتنا الجزائرية فيه نوع من التجني على ثقافة مجتمعا العربي بما يحويه من تحقير لها واستخفاف بقدرها، لأن الشواهد والنماذج التي ساقها لنا عبد الملك مرتاض هي مما ينبغي أن تكون أدلة خريته تؤكد على أن عاميتنا الجزائرية عربية أصيلة، أقيمت في حقيقة الأمر على استعمال فصيح محفوظ ومعروف في كلام البلغاء المشهود لهم بالفصاحة وقوة البيان، وما تزال صفاتها وملامحها متجذرة في تخاطباتنا اليومية إلى حد اليوم ، وهذا يفضي بنا إلى القول أن عاميتنا لم تخطئ تماما، لأن كل ذلك تقليد للقدماء فيه .

والذي يتأمل أمر الاستعمال العامي في معظم كلماته وعباراته، يدرك بوضوح أنه يقوم في الأصل على وجه من العربية طرأ عليه بعض التحريفات ليس إلا، ولعل هذا التحريفات التي نلاحظها في عاميتنا والمتداولة على ألسنة العوام هي الأكثر ارتياحا في حياتهم، لما تحتويه من اقتصاد وخفة وتقليل في الجهد العضلي والفكري .

هوامش الدراسة :

1. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ديوان المطبوعات الجامعية:2012، الساحة المركزية بن عكنون/الجزائر، ص5.
2. المرجع نفسه، ص5.
3. المرجع نفسه، ص5.
4. عبد الملك مرتاض، الألفاظ الشعبية الجزائرية، الطبعة الثالثة، ديوان المطبوعات الجامعية:2015، الساحة المركزية بن عكنون الجزائر، ص15.
5. المرجع نفسه، ص 21.
6. سمروحي الفيصل، المشكلة اللغوية العربية، الطبعة الأولى، لبنان، ص40.
7. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ص69.

8. المرجع نفسه، ص 7.
9. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة 1965، ص 18/17.
10. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ص 7.
11. سهام مادن، اللهجات العربية القديمة، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، 2011م، ص 64.
12. سهام مادن، الفصحى والعامية وعلاقتها في استعمالات الناطقين الجزائريين، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع الأبيار، الجزائر، 2011م ص 40.
13. ابن خلدون، المقدمة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني، بيروت: 1967م، ص 1079.
14. المجاهد الثقافي، مجلة جزائرية، سبتمبر: 1970، ص 7. (انقطعت هذه المجلة عن الصدور).
15. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ص 29.
16. المرجع نفسه، ص 29.
17. سعيد أحمد غراب، من روائع الأدب العربي في العصر الجاهلي، طبعة أولى، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع 2010م، دسوق، ص 27.
18. أنيس إبراهيم، في اللهجات العربية، صفحات متفرقة.
19. سعيد أحمد غراب، المرجع نفسه، ص 27.
20. أنيس إبراهيم، المرجع نفسه، صفحات متفرقة.
21. العنّعة: تُنسب ظاهرة العنّعة لبعض القبائل العربية القديمة كقبيلة تميم وبنو أسد وغيرهما، وفيها تقلب الهمزة عينا سواء كانت في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها، مثل: سمعتُ عَنْ فلاناً قال كذا"، في سمعت أن فلاناً قال كذا أما العَجْجَة فهي لغة قبيلة قضاة وفيها تحولُ الياء جيماً مع العين، فبدل قولهم: هذا راغي، أو خرج معي. يقولون: هذا راعج، خرج مَعَج، وأما الكَشْكَشَة فهي لهجة بني أسد وربيعه، يجعلون الشين مكان الكاف في خطاب المؤنث فيقولون في عليك ومثلُك: عَلَّيش و مَنَش، وقيل: أن يزداد بعد الكاف المكسورة شينٌ، مثل قولهم: عليك في عَلَّيكش، والطُطْمَانِيَّة لغة جُمَيْر وفيها يقلبون اللام في أداة التعريف مِما، فيقولون في طاب الهواء: طاب امْهَوَاءُ.
22. سهام مادن، الفصحى والعامية وعلاقتها في استعمالات الناطقين الجزائريين، ص 81.
23. فقه اللغة، ص 108.
24. محمد عبد الله عطوات، اللغة الفصحى والعامية، طبعة أولى، دار النهضة العربية 2003م، بيروت لبنان ص 11.
25. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ص 8.
26. محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، طبعة ثانية، ديوان المطبوعات الجامعية 2010م، ص 59.
27. المرجع نفسه، ص 60.
28. محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، طبعة ثانية، ديوان المطبوعات الجامعية 2010م، ص 115.
29. البشير الابراهيمي، محاضرة مشكلة العروبة في الجزائر، ندوة الأصفياء، ص 204.
30. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ص 69.
31. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر: 1931، ص 142-143.
32. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ص 8.
33. بوبو مسعود، أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، ص 223/222.
34. عبد الملك مرتاض، العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى، ص 60/59/58/57/56/55/54/53/52.
35. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 174/3، مروج الذهب، 175/3.
36. الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف، الجزء الثاني، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت 1998، ص 56/55.
37. شاعر قديم مخضرم عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام (الحيوان، 77/3).